التاريخ
بين النفي والإثبات

التحرير

I

يغرق المثقّفون العرب اليوم في نزعتين تاريخيتين غلاّبتين: نزعة الإثبات المطلق، ونزعة النفْي المطلق. أمّا النزعةُ الأُولى فتستعيدُ التاريخ باستمرار باعتباره حاضراً مستمراً لا انفصامَ فيه ولا نِزاعَ حوله. وبديهيٌّ أنّ تلك الاستعادة في قاعات الدرس في المدارس والجامعات لا تستعيد «الماجرى» بل تلك الصورة أو الصُوَرَ السائدة عنه في رتابةٍ لا تطرح أيَّ سؤالٍ، ولا ترى فيه أية مشكلةٍ بالغةً ما بلغتْ ضآلةً أو ضخامة. وهي صورةٌ أو صُوَرٌ تَمثّلُ خليطاً مما تكون عبر القرون، ومما أحدثتْهُ جِراحاتُ الوعي إبّان الحقبة الاستعمارية، وحقبة التَبَعية الراهنة. إنه التاريخ المُقدَّسُ الغاصّ بالأبطال، والأحداث العظام، التي استطاعت الجماعةُ اجتراحها أو تجاوُزَها في خطٍّ مستمرٍ ومتصاعدٍ. فإذا كان «الماجرى» عصياً على الإدراك والتعقُّل والاستعادة؛ فإنّ الصورة أو الصُوَرَ السائدة ليست أقلّ استعصاءً فضلاً عن أن تكون واقعاً أو حقيقة. وإذا ملكت هذه النظرة أو هذا التقليد «فضيلةَ» تأكيد الذات، ومقاومة اليأس والتردّي؛ فإنها عاجزةٌ عن الإجابة على الأسئلة والإنكارات التي يطرحُها هَولُ الحاضر ومراراته. وهكذا فإنّ التاريخَ في هذه النظرة هو في الحقيقة جمودٌ أو تخثُّرٌ يسجن التاريخَ الموّارَ المتحرّك في «الماضي»، ويتشبَّثُ به تَشبُّثاً مَرَضياً لا يَشْفي ولا يُغْني.

أما النزعة الثانية فتحذفُ من التاريخ في انتقائيةٍ تحكُّميةٍ ما تعتقدُهُ انحرافاً وتردّياً وتُبقي منه على صورةٍ خاصّةٍ بها حقبةً قصيرةً هي حقبةُ النبوة والخلافة الراشدة بالإضافة إلى نقاطٍ مُضيئةٍ قليلةٍ عبر القرون. وتختار النضال من أجل استعادة الحقبة الأُولى. ولأنّ صورةَ أصحاب هذه النزعة هي صورةٌ أقلوية فسُرعان ما تصطدم بالوعي السائد لدى أصحاب النزعة الأُولى حول الماضي

والحاضر فيقوم صراعٌ عدميٌّ تسيلُ فيه الدماءُ على الأقلام وفي الساحتين الاجتماعية والسياسية.

II

وغنيٌّ عن البيان أنَّ صورتَي التاريخ اللتين تحدثنا عنهما إنما هما صورتا نُخَبٍ فقدت زمام المبادرة التاريخية، وفقدت بالتالي الصِلَةَ بالواقع وبالتاريخ المتصل بهذا الواقع فصار الصراعُ صراعاً غير معقول لأنه بدون مرجع أو مقياس. يبدو ذلك في إقبال مجموعاتٍ من المستشرقين الجُدُد على تجاهُل تاريخنا كلِّه لصالح تواريخ وهمية للأُمَم الأُخرى يجري إسقاطُها على أحداث تاريخنا ووقائعه لتفسِّرها أو لتنفيَها أو لتُعيدَ تأويلها على طريقة الحذف والإلغاء. فالذاكرة التاريخية تحتاجُ إلى حُماةٍ وممثلين ومُراجعين ومُدقّقين وناقدين من الداخل. فإذا افتقرت إلى ذلك كلِّه صارت نهباً مقسَّماً يستوي فيه الحذفُ والإثباتُ إذ يصبحُ التاريخُ بدون معنًى لأنه في الأساس تطورات حياة جماعةٍ ما في العالم؛ فإذا فقدت النُخَبُ الكاتبة والمصوِّرةُ العلاقة بالجماعة صاحبة التاريخ، فقد التاريخ معناه، وسُهلَ التلاعُبُ به نفياً أو إثباتاً أو استبدالاً. لقد جرت سرقةُ حاضرنا، ويجري اليوم الاشتراعُ لهذه السرقة بإعادة تشكيل الماضي. الصراعُ صراعٌ على الحاضر في الحقيقة لكنّ الخَطَر كلَّ الخطر في التأسيس له في الماضي، وتحويل ذلك الماضي الغريب إلى تاريخ يقال لنا إنه تاريخُنا الحقيقي. وتستمرُّ ردود أفعالنا على يد أصحاب النزعتينّ السالفتي الذكر إمّا عن طريق تجميد التاريخ في ماضٍ كُلّياني أو في ماضٍ انتقائيّ والاستعادةُ في الحالتين غير ممكنة وغير مُجدية.

* * *

ويحاول دارسون عربٌ جادُّون منذ عقدين من الزمان الخروجَ من هذه الدائرة المغلَقَة أو المُفْرَغة بالدعوة لإعادة كتابة التاريخ. والنية أو المقصد حَسَنٌ لكنّ الأمر غير مُجدٍ. ذلك أنّ ما يحاولون إعادة كتابته هو الماضي المنقضي الذي كُتب واستُعيد وانتهى. فالزمان كما يقول الأشاعرة آناتٌ متجدّدةٌ. التاريخ حركةٌ موَّارةٌ، حركةٌ عاقلةٌ متعقِّلةٌ تصنعُهُ الجماعةُ الممسكة بزمام أُمورها، المستوعبةُ لمشروعها وللعالم من حولها من خلال نُخَبِها المبلورة والفاعلة. ينفتح الحاضر على المستقبل فينفتح على التاريخ الذي يستحيل أن يتراجع. فأمر التاريخ أمر استقامةٍ في الحاضر. نمتلك الحاضر فنمتلك التاريخ. ويتفلّتُ من بين أيدينا الحاضر

فينسدُّ طريق المستقبل وتتجمد إمكانيات التاريخ. تمضي الجماعةُ قُدُماً فتمتلئ آناتُ التاريخ والزمان بالمعنى. وتضيعُ النخبةُ في الماضي وحوله فتستحيلُ آناتُ الزمان ويهبُها غيرُنا معناها، ونتجمد في آنةٍ ماضيةٍ منقضية.

III

جوهر الخلاف الدائر في الأوساط الفكرية العربية يتمثّل إذن في الاستمرارية التاريخية لوجودنا وأُمتنا أو في ما سمّاه المغاربة وبعض المشرقيين في السبعينات أخذاً عن فوكو: القطيعة المعرفية وبالتالي القطيعة التاريخية. والقطيعة محرِّرة: أنت تمتلك مادمتَ وجوداً جديداً تماماً حريةَ البُلْبُل في الحركة والإبداع والانطلاق. وظواهر الأُمور تؤيدها. فالكيانات السياسية جديدة، ومفهوم الأمة يتضاءل في جوانبه السياسية بل والثقافية. وهناك أساليب حياةٍ جديدةٍ لدى سائر الفئات الاجتماعية. وعلاقاتُنا بالعالم كلِّه ـ والغربيّ بالذات ـ مختلفةٌ تماماً عن العصر الوسيط، وتابعه الحديث.

لكنْ من ناحيةٍ ثانيةٍ فالتاريخ ثقيلُ الوطأة، وشديد الحضور. ليس بالشكل المَرضي الذي تحدَّث عنه اليساريون ويتحدّث اليوم عنه الحداثيون. فالحركية الاجتماعية مسألةٌ لا تخضع لرغبات التقليديين ولا التحديثيين. وهي قائمةٌ ومضطرمةٌ من ضمن جدليات الاستمرارية والتغيير. ووجودنا الحالي حتى السياسي منه من ضروراته تلك المشروعية العميقة التي يهبُنا إياها وجودنا التاريخي العريق. ولايزال إحساسُنا بالوجود المشترك الواسع عميقاً وقوياً بحيث تعني لنا أحداثُ الماضي العربي الإسلامي أشياء أكثر وأعمقَ من الحزن للهزائم والنكسات والراحة والفخر للانتصارات. وهناك تفرقةٌ واضحةٌ لدى المثقَّف العربي بين التاريخ كَحدَث، والتاريخ كسيرورة خاضتها أمتُنا في حِقَب التكوين والشباب والازدهار. كما أنّ هناك إحساساً عميقاً وحدْساً بالفرق بين الماضي والتاريخ. الماضي الذي انتهى، والتاريخ الباقي المتجدِّد. والمنتهي تلك الأحداث والدُوَل وأشياء الثقافة المادية، والباقي أمتُنا في وجودها واستتبابها وأشواقها الحاضرة والمستقبلية للعِزَّة والكفاية والتوحد والمشاركة في حضارة العالم الحالية، كما شاركت في حيوات العوالم من قبل.

فقد يكونُ على القائلين بالقطيعة والدّاعين إليها، والمرتّبين عليها نتائج ونتائج؛ أن يتأمّلوا مصائر القائلين القطيعة قولاً أو فعلاً من رجالات الحركات

الثقافية والسياسية. وأحسبُ أنّ المصير نفسه ـ الزوال ـ يتهدَّد الحداثيين الراديكاليين، كما يتهدد الإسلاميين الراديكاليين. فالطرفان إمّا نُفاةٌ معطّلون، أو انتقائيون تحكّميون. وكما لا يمكن لأحد أن يصطنع تاريخاً يقع عليه الإجماع، كذلك لا يمكن لأحدٍ أن يضمَّ شذراتٍ بعضها لبعض بحجة أنّها هي التاريخ الصحيح ولا شيء غير. فالتاريخ كما فهمته أمتنا وتفهمه شاملٌ لِما غَبرَ وكان، والاهتمامُ به أو درجةُ الاهتمام به تتوقَّفُ على مدى أهميته لها في سياق سيرورتها وصيرورتها، أي على مدى وقدْر حياته فيها. ومهمةُ مثقّفي الأمة ومفكّريها بلورة الوعي بمشكلات الحاضر والمستقبل وقضاياهما طريقاً للوعي وتجديده بالتاريخ.

تلك هي مهمةُ النخبة تجاه نفسها وأمتها ووجودها التاريخي. وهي المهمةُ التي أُنشئَت من أجلها مجلتُنا هذه: قراءة التاريخ، وتجديد الوعي به تجديداً وتأكيداً للوعي بحقّ أمتنا في الحياة والتوحيد والتقدم.